

تزكية النفوس وتهذيبها



«وَأَنْ زَتَقَرَّبَ إِلَيْكَ فِيهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الزَّكَاكِةِ، بِمَا تُطَهِّرُنَا بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ». من الأهداف التي ينبّه إليها الإمام زين العابدين (ع) في شهر رمضان المبارك هو أن يكون لأهل الإيمان وقت مخصّص للدعاء والذكر ليتمكّنوا فيه من الاستغفار والتوبة والإنابة، واستشعار الندم والخسارة فيما مضى من العمر الذي عصي الله فيه، وأن يذكروا الله فيه حقّ ذكره ويبتهلوا إليه في هذا الشهر الفضيل.

وهذا الوقت يمكن أن يكون في الليل أو النهار إلا أن الساعات المباركة كأوقات الصلاة وأوقات البرّ والطاعة يعظم فيها الثواب والأجر، فهي الساعات التي تتحرّر فيها النفس من قيودها وتنفّس على الله بإقبال وخشوع وتضرّع، ولعلّ أفضل هذه الأوقات هو وقت السحر وخاصة في الثلث الأخير منه والذي كثرت فيه الآيات والروايات التي تبين فضله وأثره في تربية روح المؤمن.

قال الله تعالى في كتابه: (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّائِيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَاللَّيْلُ سَوِيٌّ) (الذاريات/ 17-18).

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَصَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) (السجدة/ 16).

(الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُقَاتِلِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ) (آل عمران/ 17).

(يَذْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) (آل عمران/ 113).

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النُّجُومِ وَالْزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ أَكْرَهُوا) (هود/ 114).

وعن أمير المؤمنين (ع) قال في مدح المتسحرين:

"طوبى لنفس أدست إلى ربها فرضها (أي ما أوجبه عليها من الفرائض، وعركات جنبها بؤسها (أي تصارعت مع ذاتها في دفع ما وصلت إليه من حالة مزرية في علاقتها مع الله)، وهجرت في الليل غمضها (أي لم تترك لعيونها أن تنام جميع الليل)، حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، وتوسدت كفها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم (أي إذا غلب عليها النوم ولم تستطع مقاومته فإنها تنام على الأرض متوسدة كفها لأجل أن يكون نومها قليلاً لتستيقظ بعده وتستأنف عبادتها ودعائها)، وتجاقت عن مضاجعهم جنوبهم، وهممت بذكر ربهم شفاهم، وتفشعت بطول استغفارهم دنوبهم، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون".

وفي حديث آخر قال (ع): "فاتقوا الله عباد الله تقيّة ذي لب، شغل التفكّر قلبه، وأنصب الخوف بدنه، وأسهر التهجد غرار نومه".

وقال (ع) في أحاديث أخرى قصيرة الكلمات عظيمة المعاني عن الأثر التربوي للسهر في طاعة الله ومناجاة واستغفاره فقال:

• "السهر روضة المشتاقين" (أي جذّة المستأنسين بالله والمشتاقين إلى نعيمه وجنانه).

• "سهر الليل بذكر الله غنيمه الأولياء وسجيّة الأتقياء".

• "سهر الليل شعار المتقين وشيمّة المشتاقين" (أي إن غالبية المتقين والصالحين هم من أهل القيام والتهجد في الليل).

• "أفضل العبادة سهر العيون بذكر الله سبحانه".

وبشكل عام ينبغي للإنسان أن يروّض ذاته لتكون خاشعة لله، ذاكرة له، مخلصه متوجهة إلى رضاه في جميع الأوقات والأعمال والحالات، وهي حالة أولياء الله والتي قد لا يصلها الإنسان خلال شهر واحد ولكنها خير بداية لأن يجعل المؤمن من شهر رمضان مناسبة يختصر فيه الزمان والمسافة للوصول إلى الله تعالى بعد أن فتح الله أبواب الرحمة على مصاريعها في هذا الشهر.

عن رسول الله (ص) قال: "إنّ لربكم في أيام دهركم زفحات، فتعرّضوا لها لعلّكم أن يصيبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبداً".

وفي حديث آخر قال (ص): "أطلبوا الخير دهركم كلّ سنة، وتعرّضوا لنفحات الله، فإنّ الله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده".

وهذا الشهر رحمة عظمى من الله قد لا تتكرر على الإنسان مرة أخرى حيث قد يسبق إليه الأجل قبل حلول رمضان آخر فينبغي أن يستفيد من كلّ ساعة منه عسى أن يختم له بحسن العاقبة ويكون من السعداء.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنْ نَزَّ مَا تَوْفُّوْنَ أُوْجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُجِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ) (آل عمران/ 185). ▶